

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) قال: الموت (١). وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُهُ؟» فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله! فمن؟ فقال: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ» (٢) ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِن لَّمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِن لَّمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ» (٣) ويستدل بها على تخطفه من ذهب من الملاحظة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم. آخر تفسير سورة الحجر، والحمد لله رب العالمين.

## تفسير سورة النحل وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنزَلَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

[الإنذار بقرب الساعة]

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودونها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَقَى الْقَوْمُ﴾ (١). وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه، كما قال

سُورَةُ النَّحْلِ

٢٦٧

سُورَةُ النَّحْلِ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَسْتَلْتَنَّهُمْ  
 أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ  
 عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ  
 يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ  
 أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ  
 مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

## سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنزَلَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ  
 ﴿١﴾ يَنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
 أَن نَّذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ  
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ  
 خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾  
 وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

تعالى: ﴿وَسْتَعْلُواكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ  
 وَيَأْتِيَهُمْ مِّنْهُم مَّنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥) يستعجلوك بالعذاب وإن جهنم  
 لم تحيطه بالكافرين (٦).

وروي ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَطَّلِعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ الْمَغْرِبِ مِثْلُ الثَّرَسِ، فَمَا تَرَأَىٰ تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقْبِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَنْتَهَمُونَ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْكُ، ثُمَّ يَنَادِي الثَّانِيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، ثُمَّ يَنَادِي الثَّالِثَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» قال رسول الله ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَسْتَشْرَانِ الثُّوبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُدُّنَ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرَبُهُ» (١) (الطبري: ١٦٠/١٧ (٢) فتح الباري: ١٣٧/٣ (٣) فتح

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرُودِكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَرَيْدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوْانَ الصَّدَقَةَ» (١).

﴿وَاللَّامِعَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِيلُ أَنْفَالِكُمْ إِلَى الْبَلَدِ لَوْ تَكُونُوا بِبَيْتِهِ إِلَّا بَشِقَ الْأَنْفُسِ ﴿٧﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

[الأنعام من خلق الله ونعمة منه]

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروراً وأعلاه أسنمة ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِيلُ أَنْفَالِكُمْ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَى الْبَلَدِ لَوْ تَكُونُوا بِبَيْتِهِ إِلَّا بَشِقَ الْأَنْفُسِ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَأْكُلُوا مِنْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٨٠﴾ وَرَبِّكُمْ عَلَيْهَا فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَعَلِيمٌ ﴿٨١﴾﴾ ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي ربكم الذي قيس لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا

أَبَدًا - قَالَ - وَيَسْتَعْلِفُ النَّاسُ ﴿١١﴾ ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُ الْمَلَكُوتَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

[يرسل الله من يشاء بالروح]

يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ الْمَلَكُوتَ بِالرُّوحِ﴾ أي الوحي، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحاً مِمَّنْ آمَنَّا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدُودٌ لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ لِلَّهِ فِي لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٦﴾﴾. وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي لينذروا ﴿أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي فاتقوا عقوبي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾﴾

[الله الذي خلق السموات والأرض والإنسان]

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَلِمُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ ثم نزه نفسه عن شرك من عبده غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَاهِرًا ﴿٥٥﴾﴾. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُعْطِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

(١) الحاكم: ٥٣٩/٤ (٢) أحمد: ٢١٠/٤ وابن ماجه: ٢/

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله<sup>(٥)</sup>. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي يبين الهدى والضلالة. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه. وكذا قال قتادة والضحاك. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي حائد مائل زائع عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة<sup>(٦)</sup> والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِرٌ﴾<sup>(٧)</sup> ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْتَلِفُونَ﴾<sup>(٨)</sup> إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وَوَمَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ<sup>(٩)</sup>.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> بُيُوتٌ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّرْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(١١)</sup>

### [المطر وفوائده وبيان أنه آية]

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء، وهو العلو، مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرايه، ولم يجعله ملحاً أجاباً ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقاتدة وابن زيد في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون<sup>(٨)</sup> ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

وقوله: ﴿بُيُوتٌ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّرْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وظالوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فِيمَا رَكِبْتُمْ وَمِنْهَا يَأْكُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> وقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾<sup>(١٤)</sup> لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾<sup>(١٥)</sup> وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾<sup>(١٦)</sup> قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي ثياب ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ ما تتفعون به من الأطعمة والأشربة<sup>(١٧)</sup>.

﴿وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ يَرْكَبُوهَا وَرَبِّنَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١٨)</sup>

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل<sup>(١٩)</sup>.

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل<sup>(٢٠)</sup>. وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة<sup>(٢١)</sup>.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(٢٢)</sup>

### [بيان الطرق الدينية]

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْهُوا فَارْتَبِكْ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعْ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرَى سَوْءَتَكُمْ وَرِدْشًا وَيَلِاسُ الْقَوِيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٢٣)</sup>

(١) الطبري: ١٦٨/١٧ (٢) فتح الباري: ٥٧٠/٩ ومسلم: ٣/

١٥٤١ (٣) أحمد: ٣٥٦/٣، ٣٦٢ وأبو داود: ٤/١٤٩، ١٥١

(٤) مسلم: ٣/١٥٤١ (٥) الطبري: ١٧٥/١٧ (٦) الطبري:

١٧٦/١٧ (٧) الطبري: ١٧٦/١٧ (٨) الطبري: ١٧٨/١٧

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُلَابٍ يُدْرِكُ ذَاتَكُمْ بِهِجَةً مَّا كُنْتُمْ لَكُرًا أَنْ تَكْفُرُوا بِحُجَّتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ يَوْمَ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٨﴾﴾

**آيات في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر وفيما يخرج من الأرض**

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومنه الجسماء في تسخير الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدر لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى آيَاتُ النَّهَارِ يُظَلِّبُهُ حِينَهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَلْمُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ﴾ ﴿١٧﴾ لما نبه تعالى على معالم السموات تبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَدًى أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَنَا وَالنَّجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ

وَتَحْمَلْ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّتَكُونُوا لِنَافِعِهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

لَا يَخْلُقُ أَفْئالًا تُذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦﴾

**آيات في البحار والجبال والأنهار والسبل والنجوم**

يخبر تعالى عن تسخير البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآيء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح. وقيل: تمخره بجوئتها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى

ما هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَسَبَعُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمه وإحسانه.

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي  
الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد،  
أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش  
بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَلْيَالِ أَرْسِنَهَا﴾ (٢٣).

وقوله: ﴿وَأَنْهَرَا وَسْبَلَا﴾ أي جعل فيها أنهارًا تجري من  
مكان إلى مكان آخر رزقًا للعباد، ينبع في موضع، وهو  
رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار،  
ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر  
لأهله، وهي سائرة في الأرض يمينا ويسرة، وجنوبًا  
وشمالًا. وشرقًا وغربًا، ما بين صغار وكبار، وأودية  
تجري حينًا وتقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي  
السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا  
هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقًا  
يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل  
حتى يكون ما بينهما ممرًا ومسلكًا، كما قال تعالى:  
﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام  
صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برًا وبحرًا إذا  
ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي في ظلام  
الليل، قاله ابن عباس. (١)

### [العبادة حق لله]

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له  
دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئًا بل هم  
يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا  
تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه  
إليهم، فقال: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها إِنَّ اللَّهَ  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨) أي يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر  
جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به  
لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم،  
ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير. وقال  
ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير  
في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنتم إلى طاعته واتباع  
مرضاته، رحيم بكم، لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة. (٢)

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

سُورَةُ النُّحْلِ

٢٦٩

الْبُرُوجِ

وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوَّسُوا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرُوا سُبُلًا  
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ  
﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ  
تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ  
أَحْيَاءٍ وَمَا يُشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ  
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ  
﴿٢٢﴾ لَأَجْرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ إِنَّتَ  
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ  
قَالُوا الْأَسْطِيزُ الْأُولِيَّةُ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا  
سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
فَأَقْبَهُ اللَّهُ بُنْيَتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ  
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْهَرَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

اللَّهُ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا  
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم  
الظواهر، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيرًا  
فخير وإن شرًا فشر.

### [آلهة المشركين مخلوقة غير خالقة]

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا  
يخلقون شيئًا وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا  
تَنْحِتُونَ﴾ (٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾. وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ  
أَحْيَاءٍ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا  
تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يدرون  
متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو  
جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق  
كل شيء.

(١) الطبري: ١٧/ ١٨٥ (٢) الطبري: ١٧/ ١٨٧

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَابًا وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَمَرًا﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿لَا جَزَاءَ لَكُمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِثُّ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

### [لا معبود إلا الله]

ويخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ﴿٢٤﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيدهم كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿لَا جَزَاءَ﴾ أي حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِثُّ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ فِيكُمْ قَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

### [إعراض الكفار عن الوحي ومضاعفة عقابهم]

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَاذَا أُنزِلَ فِيكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَبَهَا فِيهِ نُمُوكٌ وَعَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ ﴿٥٩﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظْهِمُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٥٨﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما ﴿فَكَرَّ وَوَدَّرَ﴾ ﴿٦٠﴾ ففُئِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٦٥﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُونَ ﴿٦٦﴾ أي ينقل ويحكي، ففترقوا عن قوله ورأيه - فبجهم الله - قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم،

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفَّ اللَّهُ بَلِيَّتَهُمْ مِنْ

الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَآتَتْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَسْتَفْتُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْآيَةَ إِنَّ الْآخِرَى لَيْسَ إِلَّا نَسْوَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

### [بيان ما فعله السابقون وما فعل بهم]

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح ﴿٤٤﴾. وقال آخرون: بل هو بختنصر. والصحيح أن هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَأَفَّ اللَّهُ بَلِيَّتَهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ﴾ أي اجتهت من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَذَفَّقَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأَرْصَبَ الْمُخْرَبُونَ يَبُوتَهُمْ وَيَأْتِيهِمُ الْيَأْسُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَاعْتَزَلُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصَارِ﴾، وقال الله ههنا: ﴿فَأَفَّ اللَّهُ

(١) مسلم: ٢٠٦٠/٤ (٢) الطبري: ١٩١/١٧ (٣) الطبري:

١٩٠/١٧ (٤) الطبري: ١٩٣/١٧

كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤١﴾ .

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ٣٩﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ٤٠﴾ الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ لِمَنْ لَدَيْكَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ آذِنَا لَهُمَ الْجَنَّةَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٤٢﴾

### [قول المتقين في الوحي وجزاؤهم وأحوالهم عند الوفاة وبعدها]

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً، أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وأمن به. ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسوله فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧٧﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ الْعِمَامَةِ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّازِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٧٧﴾ وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ٤١﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ .

وقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن، أي مقام يدخلونها ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ﴾ . وفي الحديث: «إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى سُرَابِهِمْ، فَلَا يَسْتَهِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ إِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطَرْنَا كَوَاعِبَ أَتْرَابًا فَيَكُونُ ذَلِكَ»

(١) فتح الباري: ١٠/٥٧٨ ومسلم: ٣/١٣٦٠

بُنِيَّتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْنِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٣٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُجْزِيهِمْ ٣٧﴾ أي يظهر فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ٦١﴾ أي تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْضَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ» (١) وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلصاكم هنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿فَأَلَمْ يَنْفَعُوا وَلَا يَأْمُرُونَ ١٠١﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وسكنوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ الْعِمَامَةِ وَهُمْ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَخْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَيَقُولُونَ حِينئذٍ: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْكَسُوفَ عَلَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ لِمَنْ لَدَيْكَ طَيِّبِينَ أَنْتَهُمْ قَالُوا لَسْنَا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ٣٩﴾

### [أحوال الكافرين عند وفاتهم وبعدها]

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَالْقَوْلُ السَّعَىٰ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْشُرُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْشُرُونَ لَكَ﴾ قال الله مكذباً لهم في قبيلهم ذلك ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ٣٩﴾ أي بنس المقييل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿لَا يَبْضِئُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾

الْمَلَكِ الْمَلِكِ

٢٧٠

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٢٠) نَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَلْنَا مِنْ غَفْوَرٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿ يَبْتَئِثُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٧٧).

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

**[معنى تأخر الكافرين عن الإيمان انتظارهم للعذاب]**

يقول تعالى مهديًا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم. قاله قتادة (١). ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فهذا أصابته عقوبة الله على ذلك ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فهذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٤).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ وَالَّذِينَ اتَّخَفُوا مَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خِيراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٩﴾

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوبَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَصِيرَةٍ ﴿٣٧﴾

**[استدلال المشركين على شركهم بالقدر، والرمد]****عليهم**

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكنتنا منه، قال الله

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ اتَّخَفُوا مَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خِيراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٩﴾



تعالى رادًا عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولًا، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥)، وقوله تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم متفية، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عقوبة المكذبين﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أعتابها﴾ فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨). ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُصْحِبَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيًا لَكُمْ وَبَدْرَهُمْ فِي طُعْنَتِهِمْ يَمْعُونُ﴾ (١٦) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عقوبة المكذبين ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُوتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرًا الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾. وقوله: ﴿قَاتِلِ اللَّهَ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلماذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وما لهم من نصير﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

[البعث بعد الموت حق، وفيه حكمة، وهو هين على الله]

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أي اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أي استبعدوا

الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَتُبَدِّلَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة<sup>(١)</sup>. وقيل: الرزق الطيب. قاله مجاهد<sup>(٢)</sup> ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فوعضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع، فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتمقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَا تُجْرُ الْآخِرَةُ أَكْبَرَ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله. ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

### [ما أرسل رسول إلا من البشر]

قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ ليسوا من أهل السماء كما قلتهم<sup>(٣)</sup> وكذا روي عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب<sup>(٤)</sup>، وذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَكَذَا﴾

(١) الطبري: ١٧/٢٠٥، ٢٠٦ (٢) الطبري: ١٧/٢٠٦ (٣) الطبري: ١٧/٢٠٨ (٤) الطبري: ١٧/٢٠٨

ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذبا لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي لا بد منه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلجلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي من كل شيء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا وَعَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ أي في إيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أفصحاً هكذا أم أنته لا تبصرون ﴿أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمعاد من ذلك، إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا نَعْمَتَكُمْ إِلَّا كَيْفَ يَشَاءُ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي أن نامر به مرة واحدة فإذا هو كائن.

أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَدِّلَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَاجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

### [جزاء المهاجرين]

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرفهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم

نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ .

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك<sup>(٣)</sup>. وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم<sup>(٤)</sup>. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَءُوْفٌ رَّحِيْمٌ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَىٰ أَدَىٰ سَمِعُهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَكَدًّا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»<sup>(٥)</sup> وفيهما: «إِنَّ اللَّهَ لَيُثَلِّي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلِبْهُ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾<sup>(٦)</sup> وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْبَيْهِ أَمَلَيْتَ هَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّمْ يَأْخُذْهَا وَلَئِنَّ الْمَصِيرَ﴾<sup>(٧)</sup>.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن قَبْلِهِ يَتَفَتَّحُونَ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾<sup>(٨)</sup> وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ ﴿١٩﴾ بِحَافُونَ رَبِّهِمْ مِّن قُوَّتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾

### [سجود كل شيء لله]

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفأ ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشيًا فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل<sup>(٧)</sup>. وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم<sup>(٨)</sup>. وقوله: ﴿وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ أي صاغرون. وقال مجاهد أيضًا: سجود كل شيء فيؤه<sup>(٩)</sup>، وذكر الجبال، قال: سجودها

(١) الطبري: ٢١١/١٧ (٢) الطبري: ٢١٣/١٧ (٣) الطبري: ٢١٤/١٧ (٤) الطبري: ٢١٥/١٧ (٥) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٦) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ٤/١٩٩٧ (٧) الطبري: ٢١٧/١٧ (٨) الطبري: ٢١٧/١٧ (٩) الطبري: ٢١٧/١٧

كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٦﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ حَسَدًا إِلَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾<sup>(٨)</sup> وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّن الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشرًا أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم<sup>(١)</sup>. والزر جمع زبور. تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من ربهم لعلكم بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيْبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢١﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَءُوْفٌ رَّحِيْمٌ ﴿٢٢﴾

### [كيف يأمن المجرمون]

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمْنُكُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾<sup>(١)</sup> أَمْ أَمْنُكُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَأْمَنُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿٢﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيْبِهِمْ﴾ أي في تقليبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية. قال قتادة والسدي: تقليبهم أي أسفارهم<sup>(٢)</sup>، كقوله: ﴿فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ

فيها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وظَلْمُهُمْ بِالْغَدْوِ وَالْأَصَالِ﴾ (١٥). وقوله: ﴿وَالْمَلٰئِكَةُ وَهَمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي ماثبرين على طاعته تعالى وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلدِّهَانِ آتِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَجِدْتُ قَلْبِي فَأَرْهَبُونَ﴾ (١٥) ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (١٦) ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَنَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُدُونَ﴾ (١٧) ﴿ثُمَّ إِذَا كَفَسَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَشْتَعُوا فِسْقًا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩)

### [الله وحده يستحق العبادة]

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون ابن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي دائماً (١١). وعن ابن عباس أيضاً: أي واجباً (١٢). وقال مجاهد: أي

خالصاً له، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ رَبِّ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (١٣) هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي اربها أن تشركوا بي شيئاً وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَنَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُدُونَ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسالونه وتلجأون في الرغبة إليه مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَنَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (١٧) وقال هنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَفَسَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ قيل: اللام هنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْلَمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٤) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٥) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَفَاضَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٧) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيهِ أَظَلُّوا لَعْنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلٰئِكَةُ وَهَمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلدِّهَانِ آتِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَجِدْتُ قَلْبِي فَأَرْهَبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (٢٣) ﴿ثُمَّ إِذَا كَفَسَ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُدُونَ﴾ (٢٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٢٥)

ليكفروا أي يسترأ ويحسدوا نعم الله عليهم وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً ﴿فَتَشْتَعُوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة ذلك.

﴿وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَانُ عَمَّا كَتَبَتْ فَتَرُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ الْبَيِّنَاتِ سُبْحَانَ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿بِتُورَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَوْ يَدْشُمُ فِي الْغُرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٩) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٠) [من أعمال المشركين النذر للآلهة مما رزقهم الله]

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: هذا لله بزعمهم وهذا

لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون أي جعلوا لألهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه واتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ تَقْتَرُونَ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناناً، وجعلوها بنات الله فعبدها معه، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿الْكُفْرَ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ إِذْ أَقْسَمْتُمْ بِهِ أَن لَّيْسَ بِلَدٍّ لِّكُلِّ بَشَرٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَلَئِن يَدْعُهُمْ إِبْنَاتُهُنَّ فَكُلُوهُنَّ وَأَلْفَاقُهُنَّ يَلْعَنُ اللَّهُ مَن يَدْعُهُنَّ أَتَى اللَّهُ عِلْمَهُمْ لَأَوْتِيَهُمْ حَقَّهُنَّ وَكَذَٰلِكَ يَسْتَفْهِمُونَ اللَّهَ لِيُذِيقَهُنَّ عَذَابَهُنَّ﴾ وقوله هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ﴾ أي عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَا إِنَّمَا يَفْكُهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لِيَقُولُوا﴾ ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

### [نفور المشركين عن البنات]

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي كئيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسُّكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يتدها، وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه الله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بنس ما قالوا، وبنس ما قسموا، وبنس ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. وقوله هنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبِيحَةُ

سورة النحل  
٢٧٣  
لِكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿٥٥﴾ ويجعلون لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَفَعْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ويجعلون لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسُّكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ الْأَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبِيحَةُ لِكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿٥٥﴾ ويجعلون لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَفَعْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ويجعلون لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسُّكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ الْأَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبِيحَةُ لِكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿٥٥﴾ ويجعلون لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَفَعْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ويجعلون لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسُّكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ الْأَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبِيحَةُ لِكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿٥٥﴾ ويجعلون لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَفَعْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ويجعلون لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسُّكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ الْأَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبِيحَةُ

الْكُفْرَ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ إِذْ أَقْسَمْتُمْ بِهِ أَن لَّيْسَ بِلَدٍّ لِّكُلِّ بَشَرٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَلَئِن يَدْعُهُمْ إِبْنَاتُهُنَّ فَكُلُوهُنَّ وَأَلْفَاقُهُنَّ يَلْعَنُ اللَّهُ مَن يَدْعُهُنَّ أَتَى اللَّهُ عِلْمَهُمْ لَأَوْتِيَهُمْ حَقَّهُنَّ وَكَذَٰلِكَ يَسْتَفْهِمُونَ اللَّهَ لِيُذِيقَهُنَّ عَذَابَهُنَّ

مُفْرَطُونَ ﴿١١﴾

### [لا يؤخذ بالمعاصي فوراً]

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى، أي لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. روى ابن جرير عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه. فقال: بلى والله! حتى إن الجباري لتموت في وكرها بظلم الظالم<sup>(١)</sup>.

### [نسبة المشركين إلى الله ما يكرهون]

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات،

وفعلوه. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريح لهم، ولهم عذاب أليم.

### [القصص من إنزال القرآن]

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب لبيِّن للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدَىٰ﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعِبْرَةٍ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

لَبِئْسَ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِيرِينَ ﴿١١﴾ وَمِنْ تَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ

نَسِجَدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾

### [العبرة والنعمة في الأنعام وثمرات النخيل والأعناب]

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولفظه ﴿شُفِيحًا﴾ أي في بطونه. أفردنا هنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى مما في بطونها، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٧﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّتٍ قَنَاطِرًا يُمَرِّجُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾﴾، فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴿١٦﴾ أي المال.

وقوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِئْسَ خَالِصًا﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، ما بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِيرِينَ﴾ أي لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذة الناس من الأشربة من ثمرات النخيل

ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وَوَصِّفُ الْيَسْتَهْمُ الْكَذِبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفُورًا ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيُقَوِّنَ لَهُ مِنَّا هَذَابًا ﴿١٠﴾ وَإِنَّمَا لِفَرْحِ فُحُورٍ ﴿١١﴾﴾ وكقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَسَّتْهُ لَيُقَوِّنَ هَذَا لِي وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتَ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾. وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُودتُ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٦﴾﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل.

ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيههم ذلك: ﴿لَا جُرْمَ﴾ أي حقاً لا بد منه ﴿أَنْ لَّمْ يَكْفُرُوا﴾ أي يوم القيامة ﴿وَأَنْتُمْ مُقْرَنُونَ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون<sup>(١)</sup> وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾. وعن قتادة أيضاً: ﴿مُقْرَنُونَ﴾ أي معجلون إلى النار من الفرط<sup>(٢)</sup>، وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

﴿تَاللَّهِ لَئِن لَّمْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّمْ يَسْمَعُوا مِنْهُمُ الْعِلْمَ فَهُوَ وَرِثُهُمْ يُومِنُونَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

### [التعري بمن سبق]

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزوين الشيطان لهم ما

وقال قتادة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ أي مطيعة<sup>(٣)</sup>، فجعله حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لِمَمَّ فَمِنَّا رُكُوبُهُمْ وَمِنَهَا يَأْكُلُونَ﴾<sup>(٤)</sup> قال: ألا ترى أنهم يقولون النحل بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي فأسلكها مذلة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح<sup>(٥)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا سَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده.

روى البخاري ومسلم في صحيحهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله! سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله! سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «أَذْهَبَ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله! ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَّبَ بَطْنُ أَحِيكَ، أَذْهَبَ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فذهب فسقاه عسلاً فبرئ<sup>(٦)</sup>.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل<sup>(٧)</sup>. هذا لفظ البخاري. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مَجْحَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيْهِ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيْ»<sup>(٨)</sup>.

والأعقاب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك.

كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما<sup>(٩)</sup>. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله<sup>(١٠)</sup>، يعني ما ييس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ناسب ذكر العقل هنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَانًا فِيهَا مِنْ الْعُمُومِ ﴿٣١﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِنْ مِمَّا تَنْبَثُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كُنَّ مِنْ كُلِّ الْأَثَرِ قَائِلًا سُبُلًا ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا سَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

### [وفي النحل وعسلها نعمة وعبرة]

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها وحرصها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرئاً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمناً ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها وتقي العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

(١) الطبري: ٢٤١/١٧ (٢) الطبري: ٢٤٢/١٧ (٣) الطبري: ٢٤٩/١٧ (٤) الطبري: ٢٤٩/١٧ (٥) الطبري: ٢٤٩/١٧ (٦) فتح الباري: ١٧٨/١٠ ومسلم: ١٧٣٦/٤ (٧) فتح الباري: ٨١/١٠ ومسلم: ١١٠١/٢ (٨) فتح الباري: ١٤٣/١٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٧٤

سُورَةُ النَّحْلِ

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فِي ذَلِكَ  
 لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيَكُمْ مِمَّا  
 فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾  
 وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا  
 حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ  
 أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي  
 مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذَلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا  
 شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ  
 يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ  
 الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ  
 فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي  
 رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ  
 اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا  
 وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ  
 الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ  
 تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴿٧١﴾ الآية. قال العوفي عن ابن  
 عباس في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في  
 أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في  
 سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١). وقال  
 في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون  
 لأنفسكم.

وقوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي أنهم جعلوا الله مما  
 ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، فجدحوا نعمته، وأشركوا  
 معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن  
 الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى  
 الأشعري: واقع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضل  
 بعض عباده على بعض في الرزق بلاء بيتلي به كلاً، فيبتلي  
 من بسط له كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في  
 إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه  
 المهامة، والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للسمع  
 والعسل، وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في  
 عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون  
 بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم  
 الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ  
 بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

### [وفي الإنسان عبرة]

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي  
 أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه  
 حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة، كما قال الله  
 تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ  
 قُوَّةً﴾ الآية، وقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي بعد ما  
 كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف، ولهذا  
 روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن  
 رسول الله ﷺ كان يدعو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ  
 وَالْهَرَمِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ وَفِتْنَةِ  
 الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ» (١). وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته  
 المشهورة.

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش  
 ثمانين عاماً لا أبالك يسأم  
 رأيت المنايا خبط عشواء من تصب  
 تمته ومن تخطى يعمر فيهرم  
 ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي  
 رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ  
 يَجْحَدُونَ﴾ (٧١)

### [وفي أمور معاش الإنسان آية ونعمة]

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله  
 من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون  
 في تليبتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو  
 لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى منكرًا عليهم: أنتم لا  
 ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى  
 هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم، كما قال  
 في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ



فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَزْكُمُونَ﴾  
 ﴿بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ  
 هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢)

### [ومن النعم والآيات الأزواج والأولاد والأحفاد]

يذكر تعالى نعمه على عبده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد<sup>(١)</sup>. قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ وهم الولد وولد الولد<sup>(٢)</sup>. وقيل: الخدم والأعوان، وقيل: الأختان، وقيل: الأصهار. قلت: فمن جعل ﴿وَحَفْدَةٍ﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنْتَنًا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَرْزُقْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَاسُؤَ وَتَرْبَعًا؟»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤)

### [النكير على عبادة غير الله]

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا  
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا

فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ

أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى  
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ

أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧) ﴿وَاللَّهُ  
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ

لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿٧٨﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ  
مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباحاً وأمثالاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم تجهلون تشركون به غيره.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ

رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ

يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

### [مثل للمؤمن والكافر أو للوثن والحق]

قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن<sup>(٤)</sup>. وكذا قال قتادة<sup>(٥)</sup>. واختاره ابن جرير<sup>(٦)</sup>.

فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن. وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: هو مثل

(١) الطبري: ٢٥٧، ٢٥٦/١٧ (٢) الطبري: ٢٥٧/١٧ (٣)

مسلم: ٢٢٧٩/٤ (٤) الطبري: ٢٦١/١٧ (٥) الطبري: ١٧/

٢٦١ (٦) الطبري: ٢٦٣/١٧

المرثيات، والأفتدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح. وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارية وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحْضَلُ مِنْ أَدَاءِ مَا أْفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَيْتَن سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتُهُ، وَلَيْتَن دَعَانِي لِأَجِيبْتُهُ، وَلَيْتَن اسْتَعَادَ بِي لِأَعِيدْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»<sup>(٢)</sup> فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي ما شرعه الله له، ولا يبتطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبتطش، وبي يمشي<sup>(٣)</sup>. ولهذا قال تعالى: «وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» كقوله تعالى في الآية الأخرى: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ»<sup>(٤)</sup> قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»<sup>(٥)</sup>.

### [وفي تسخير الطير في جو السماء آية]

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تشغل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قَوْفَهُمْ صَفْتٌ وَقَبْضَنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ

(١) الطبري: ١٧/٢٦٣ (٢) فتح الباري: ١١/٣٤٨ (٣) فتح الباري: ١١/٣٥٣

مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجمله إلا كل غبي قال الله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٦)</sup>

### [مثل آخر]

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كل أي عيال وكلفة على مولاه «أَيْنَمَا يُوَجِّههُ» أي يبعثه «لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ» ولا ينجح مسعاه «هَلْ يَسْتَوِي» من هذه صفاته «وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» أي بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة «وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وقال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْخِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٧)</sup> وَاللَّهُ أَنْزَلَ حِكْمَهُمْ مِنْ بَطْنٍ أَنْهَيْتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»<sup>(٨)</sup> أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»<sup>(٩)</sup>

### [الغيب لله وعنده علم الساعة]

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعته تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفِج بِالْبَصْرِ»<sup>(١٠)</sup> أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَفِجِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كما قال: «مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كَفَفِينَ وَاحِدَةً».

### [ومن نعم الله السمع والأبصار والأفتدة]

ثم ذكر تعالى منتهى عباده في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون

إِلَّا أَرْجَمَ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْئًا بَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٣﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٨٤﴾﴾

### [البيوت والأثاث والثياب من نعم الله]

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، ويتنفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثْنَا﴾ أي تتخذون منه أثنا وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع<sup>(١)</sup>. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة. وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

### [الظلال والجبال وسرابيل الثوب والحديد أيضًا من

#### نعم الله]

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا﴾ قال قتادة: يعني الشجر<sup>(٢)</sup> ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي حصونًا ومعاقل كما ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هكذا فسر

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَّكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاءُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالِقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامِعُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أي من الإسلام.

### [ما على الرسول إلا البلاغ]

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدبته إليهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَّكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاءُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالِقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامِعُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٧﴾ وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ الْآيَةَ. وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

### [استسلم الجميع لله يوم القيامة]

وقوله: ﴿وَالْقَوْمَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ<sup>(١)</sup>. أي استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبِيرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِشُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله: ﴿وَالْقَوْمَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

### [الزيادة في عذاب المفسدين من الكفار]

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِذِ انبَغَتْ لَهُمْ أَعْيُنُهُمْ لِقَاءِ اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ يَكُونُونَ أَعْيُنًا لِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ حَامِلِينَ﴾ أي عذابا على كفرهم وعذابا على صدمهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَهَوَّنَ عَنْهُ وَيَتَوَرَّعُونَ عَنْهُ﴾ أي يهتدون الناس عن اتباعه ويتعدون هم منه أيضا «وَأَنْ يَكُونُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعْتُونَ» وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ لِكُلِّ مَنَاقِبَةٍ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السِّرَّ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ كِتَابًا مُبِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ رَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

### [كل نبي يشهد على أمته يوم القيامة]

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِذِ انبَغَتْ لَهُمْ أَعْيُنُهُمْ لِقَاءِ اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ يَكُونُونَ أَعْيُنًا لِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ حَامِلِينَ ﴿٨٨﴾

### [حال المشركين يوم الحشر]

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدًا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدِّتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظُنُّونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِيمَا ظَلَمُوا﴾ ﴿٣٦﴾ فلماذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وإذا رآه الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي الذين أشركوا «أَلْعَذَابُ أَفْأَلَا يُحَفِّفُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يفتقر عنهم ساعة واحدة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعًا من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهًا آخر. وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافًا من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم، وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ يُبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَظْفًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِبِينَ دَعَا هُنَالِكَ شُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ شُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا شُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا ﴿٥٦﴾﴾ وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعًا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

### [تبرأ آلهة المشركين منهم أحوج ما يكونون إليها]

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا «قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِيلُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا

الذبيح كفو وأصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق  
 العذاب بما كانوا يفسدون ﴿٨٨﴾ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ**  
**أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَيَّ**  
**هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى**  
**وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾** **إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ**  
**وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَتَّعَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ**  
**وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾**  
**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ**  
**بِعَدْوٍ كِيدًا هَٰذَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ**  
**اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾** **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّ**  
**غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا**  
**بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُكُمْ**  
**اللَّهُ بِهِ، وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾**  
**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يَضِلُّ مَنْ**  
**يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾**

الأرحام، كما قال: ﴿وَمَا تَدَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالْأَرْحَامَ  
 السَّبِيلَ وَلَا يَبْدُرْ تُبْدِيرًا﴾ (١٦). وقوله: ﴿وَيَتَّعَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ  
 وَالْمُنْكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات، والمنكرات ما ظهر  
 منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا  
 حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ وأما البغي فهو  
 العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: «مَا مِنْ ذَنْبٍ  
 أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ  
 فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّجْمِ» (٤). وقوله:  
 ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما  
 ينهاكم عنه من الشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وقال الشعبي  
 عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع  
 آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ  
 وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية (٥). رواه ابن جرير.

قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَيَّ  
 هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٨٨) فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ» فقال  
 ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان (١).

### [القرآن تبيان لكل شيء]

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال  
 ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل  
 شيء (٢). فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما  
 سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه  
 محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم  
 ﴿وَهُدًى﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال  
 الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي:  
 بالسنة (٣). ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع  
 قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَيَّ هَؤُلَاءِ﴾ أن المراد - والله  
 أعلم - إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله  
 عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلُ  
 إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ ﴿فَوَرَبَّكَ لَنَسْتَلْهُنَّ  
 أَجْمَعِينَ ﴿٩١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ  
 مَاذَا أُنْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿١٨﴾﴾ وقال  
 تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا وَمَا  
 آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لَعَلَّكَ تَتَّقِي﴾ أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه،  
 ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك.  
 هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾

﴿وَيَتَّعَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠)

### [الأمر بالإحسان والإحسان]

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط  
 والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ  
 عَابَقْتُمْ فَقَابِقُوا بِمِثْلِ مَا عُوبِقْتُمْ بِهِ وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ  
 لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١١) وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا  
 وَأَصْلَحَ فَأَمْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ  
 تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات  
 الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

[الأمر بصلة الأرحام والنهي عن الفحشاء والمنكر

والبغى]

وقوله: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي يأمر بصلة

(١) فتح الباري: ٩٩/٨ (٢) الطبري: ٢٦٩/١٧ (٣) الدر

المثور: ١٥٨/٥ (٤) أبو داود: ٢٠٨/٥ (٥) الطبري: ١٧/

## [واقعة عين لعثمان]

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ يغمض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة، فقال: «وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغمض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وَفَطِنْتُ لِدَيْكَ؟» فقال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ آتِياً وَأَنْتَ جَالِسٌ» قال: رسول الله؟ قال: «نَعَمْ»، قال: فما قال لك؟ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ<sup>(١)</sup>. إسناده جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١١)</sup> وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِئِهِ وَبَلِيغَانٌ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾<sup>(١٢)</sup>

## [الأمر بيفاء العهد]

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ الآية، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا

أَيْمَانِكُمْ﴾ أي لا تركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أُحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا - وفي رواية - وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي»<sup>(٢)</sup> لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني الحلف، أي حلف الجاهلية<sup>(٣)</sup>. ويؤيد ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حَلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَتَمَّا حَلْفَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»<sup>(٤)</sup> وكذا رواه مسلم<sup>(٥)</sup>. ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا<sup>(٦)</sup>. فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾. قال عبدالله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه<sup>(٧)</sup>. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده<sup>(٨)</sup>. وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله: ﴿أَنْكَا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر، نقضت غزلها أنكأ أي أنقضها، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي لا تكونوا أنكأ جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي خديعة ومكرًا ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي تحلفون للناس إذا

(١) أحمد: ٣١٨/١ (٢) فتح الباري: ٥٢٥/١١ ومسلم: ٣/

١٢٦٩ (٣) الطبري: ٢٨٢/١٧ (٤) أحمد: ٨٣/٤ (٥)

مسلم: ١٩٦١/٤ (٦) فتح الباري: ٥٥٢/٤ ومسلم: ٤/

١٩٦١ (٧) الطبري: ٢٨٥/١٧ (٨) الطبري: ٢٨٥/١٧

ولهذا قال: ﴿وَتَذُقُوا أَسْوَأَ مَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

### [ لا تقضوا الأيمان للدنيا ]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجا موعوده، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) ما عندكم يفد أي يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه وما عند الله باقي أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

### [ العمل الصالح وجزاؤه ]

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضًا: هي العمل بالطاعة والانسراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن

كانوا أكثر منكم ليطمثوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لئيبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعر، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعر، فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَلْوُكُمُ اللَّهُ بِؤُسٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة (٩٦). رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر (٩٧).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَسْتَ تَأْتِيَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قدم بعد ثبوتها وتذوقوا

أَسْوَأَ مَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٥)

وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَفْدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ

بَاقِي وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (٩٧)

### [ لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ]

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباغض ولا شحنةاء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنفير والقطير.

### [ النهي عن أن يحلف للدخاع ]

ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلًا أي خديعة ومكرًا لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام،

عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَفَتَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»<sup>(١)</sup>. ورواه مسلم<sup>(٢)</sup>.

(١) (الطبري: ٢٧٨)

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾

[الأمر بالاستعاذة قبل التلاوة]

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطه في أول التفسير، والله الحمد والمنة. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة ثلاثا يلبس على القارئ قراءة، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾. قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه<sup>(٣)</sup>. وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٥٠﴾، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ٥٠﴾ قال مجاهد: يطبعونه<sup>(٤)</sup>. وقال آخرون: اتخذه وليًا من دون الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي أشركوه في عبادة الله تعالى.

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ ١٠١ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠٢ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٣﴾

[رمي المشركين الرسول بالافتراء لنسخ بعض

الآيات، والرد عليهم]

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي رفعناها وأثبتنا غيرها<sup>(٥)</sup>. وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية<sup>(٦)</sup>. فقال تعالى مجيبًا

سُورَةُ النُّحْلِ

٢٧٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَلَا تَسْخَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَزِيلَ لَهُمْ بَعْدُ ثَوْبَهَا وَتَذَوُّوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٩٨ وَلَا تَسْخَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِثْمًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩٩ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٠٠ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٠١ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ١٠٢ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ١٠٣ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٤ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ ١٠٥ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠٦ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٧

لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ﴾ أي جبريل ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتختب له قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا عَلَّمَهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾

[نسبة المشركين تعليم القرآن إلى بشر والرد عليهم]

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه

(١) أحمد: ٢٦٨/٢ (٢) مسلم: ٧٣٠/٢ (٣) الطبري: ١٧/

٢٩٤ (٤) الطبري: ٢٩٤/١٧ (٥) الطبري: ٢٩٧/١٧ (٦)

الطبري: ٢٩٧/١٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٩

سُورَةُ النَّحْلِ

وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانٌ  
الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ  
مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ  
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ  
لَا يُؤْمِنُونَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ  
﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ  
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا  
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ  
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ وَأَوْلِيكَ  
الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ  
وَأَوْلِيكَ هُمُ الْفٰلِقُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ  
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنَانَا جَهْدُوا  
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ  
مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ وَأَوْلِيكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ  
وَأَبْصَرِهِمْ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْفٰلِقُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

**[قهر الله وغضبه على المرتد إلا من أكره على الكفر]**  
أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح  
صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم  
بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار  
الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة،  
فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم  
يهد الله قلوبهم وثبتهم على الدين الحق، فطبع على  
قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئا ينفعهم، وختم على

ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف  
العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد  
جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى رادًا  
عليهم في افتراءهم ذلك ﴿لِسَانٌ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ  
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي القرآن، أي فكيف  
يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه  
التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على  
نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا  
من له أدنى مسكة من العقل.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ  
يعلم قيتا بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان،  
وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج  
من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية  
﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانٌ الَّذِي  
يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١)  
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ﴾ (٢) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ  
وَأَوْلِيكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (٣)

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل  
عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان  
بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم  
الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم  
عذاب أليم موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن  
رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفترى الكذب  
على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ بَيَّاتَتْ اللَّهُ﴾ من الكفرة والملحدن المعروفين  
بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق  
الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا،  
معروفا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم  
بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ، ولهذا لما  
سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي  
سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم  
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال  
هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب  
على الله عز وجل.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ

سمعهم وأبصارهم فلا يتفعلون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَيْرُونَ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة - وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

### [سبب نزول الآية]

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup>. وهكذا قال الشعبي وقاتدة وأبو مالك<sup>(٢)</sup>. وروى ابن جرير عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ»<sup>(٣)</sup> ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ، وذكر آهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله! ما تركت حتى سببتك وذكرت آهتهم بخير، قال: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ» وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾<sup>(٤)</sup>. ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها - رضي الله عنه وأرضاه - . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعُه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك<sup>(٥)</sup>. والأفضل والأولى أن يشب المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّكَ إِلَهَ لَدِينِكَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَرُّوا إِلَيْكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَنُوا رَجِمُوا﴾<sup>(٦)</sup>  
﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدًا عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

### [يغفر المكره إذ عمل الصالحات بعد الإكراه]

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا

(١) الطبري: ٣٠٤/١٧ (٢) الطبري: ٣٠٤/١٧ (٣) الطبري: ٣٠٤/١٧ (٤) النسائي في الكبرى: ٨/٢٠٩ (٥) أسد الغابة: ١٠٤٩ (٦) ذكر الحافظ هذه القصة في الإصابة (ت: ٤٤٦٤) مختصراً وعزاه للبيهقي.

سورة النحل

٢٨٠

سورة النحل

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٥﴾ فَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّتْرُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرْمًا مَّا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٠﴾

الآية. وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس<sup>(١)</sup>. وإليه ذهب مجاهد وقادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله<sup>(٢)</sup>.

﴿فَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ۚ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّتْرُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرْمًا مَّا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٠﴾

معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها، أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ﴾ أي تحاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون تقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٥﴾

[مثل لمكة]

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ويتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ أَهْلُ مَكَّةَ تُخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُنَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي هينئنا سهلاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنُسُّوْنَ الْفَرَارِ ﴿٢٠﴾﴾ ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافاً، فقال: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيئ إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافة فدعا عليهم بسبع كسيع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمتهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِي آلِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١﴾ رَسُولًا﴾

الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرَج، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِرْبَ الْبَقَرِ وَالغَنَورَ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلى قوله ﴿لَصُدُّوا عَنْهَا﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فَيُظَلُّونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبٌ أُجَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ثم أخبر تعالى تكريمًا وامتنانًا في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ لَدَيْنَا عَمِلُوا السُّوءَ بِمَهَلَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَذِي عِلْمٍ غَنِيٌّ﴾ أي تلك الفعلية والزلة ﴿لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾  
 ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾  
 ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الآخِرَةِ لَئِن الصَّالِحِينَ﴾  
 ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

### [ذكر خليل الله]

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، وبيّره من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فإمام الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال مجاهد: أمة أي أمة وحده، وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أي قائمًا بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك

الْكُذِبِ هَذَا حَلَّلَ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

### [الأمر بأكل الرزق الحلال والشكر وبيان الحرام]

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أَهْلُ لَغْوٍ اللَّهُ بِهِ﴾ أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ إليه أي احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته. والله الحمد.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعًا لهم ابتدعه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَّلَ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، وما في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدرية، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعّد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿ثُمَّ نَعْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾  
 ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ لَدَيْنَا عَمِلُوا السُّوءَ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

### [تحريم بعض الطيبات على اليهود]

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أرحص فيه عند

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ  
 بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٦﴾  
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
 ﴿١٢٧﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
 ﴿١٢٨﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ  
 ﴿١٢٩﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ  
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّمَا جَعَلْنَا السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ  
 ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا  
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣١﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ  
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بَالِيًّا هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ  
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٢﴾  
 وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ  
 لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ  
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٤﴾  
 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٣٥﴾

له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾  
 أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن  
 إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ  
 الصَّالِحِينَ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا  
 حَسَنَةً﴾ أي لسان صدق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ  
 مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده  
 وطريقه، أنا أوحينا إليك بإخاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنْ  
 اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله في  
 الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ  
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ ثم قال تعالى منكرًا  
 على اليهود.

﴿إِنَّمَا جَعَلْنَا السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ  
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٣١﴾

### [جعل السبت على اليهود]

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يومًا من الأسبوع  
 يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم  
 الجمعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة،  
 واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله  
 تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا  
 عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب  
 شيئًا من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة  
 فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا  
 به، وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ  
 إذا بعثه، وأخذه موثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال  
 تعالى: ﴿إِنَّمَا جَعَلْنَا السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال  
 مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة<sup>(١)</sup> ثم إنهم لم يزالوا  
 متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه  
 حولهم إلى يوم الأحد، ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة  
 إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظًا على  
 السبت حتى رفع، وإن النصراري بعده في زمن قسطنطين  
 هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا  
 إلى الصلاة شرقًا عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه  
 أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ، بَيِّدْ أَنَّهُمْ وَأَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمْ  
 الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَأَخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ،

فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»<sup>(٢)</sup>  
 لفظ البخاري. وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما  
 قالا: قال رسول الله ﷺ: «أَصْلُ اللَّهِ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ  
 قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ  
 الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا. فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ  
 الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
 نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
 وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلْقِ»<sup>(٣)</sup> رواه مسلم.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بَالِيًّا  
 هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ  
 بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾

### [الأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة]

يقول تعالى أمرًا رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى  
 الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من

(١) الطبري: ١٧/٣٢٠ (٢) فتح الباري: ١١/٥٢٦ ومسلم:

٥٨٦/٢ مسلم: (٣) ٥٨٦/٢

الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس<sup>(١)</sup>، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى وقوله: ﴿وَيَحْدِلْهُمْ يَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الآية. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا فَعَلِمَ يَدْذَكُرُ أَوْ يَخْشَى﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾<sup>(٥)</sup>

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا هُمْ تَحْسِنُونَ﴾<sup>(٦)</sup>

﴿فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾<sup>(٨)</sup>

﴿الأمم بالمساواة في القصاص﴾

ومخالفيهم.

آخر تفسير سورة النحل، والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

## تفسير سورة الإسراء وهي مكية

### ﴿فضل سورة الإسراء﴾

روى الإمام الحافظ المتقن أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي<sup>(١)</sup>. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى تقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى تقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر<sup>(٢)</sup>.

﴿الطبري: ٣٢١/١٧ (٢) عبد الرزاق: ٣٦١/٢ (٣) الطبري: ٥٢٥، ٥٢٤/١٧ (٤) الطبري: ٣٢٤/١٧ (٥) فتح الباري: ١١/٧ (٦) فتح الباري: ٦٥٥/٨ (٧) أحمد: ٦/١٨٩

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما روى عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله<sup>(٣)</sup>. وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم<sup>(٤)</sup>. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يارسول الله! لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد<sup>(٥)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ